مفاجأة

لم تقع[1] اليوم ، ولم تقع أمس ، وإنما وقعت مساء السبت فيما يقول الناس ، فقد زعموا أن بعض البيئات المصرية قرأت فى وقت واحد خلاصة الفصل الذى نشرته الديلى تلغراف ، ونفت فيه نفيا قاطعا نقل المندوب السامى وأنباء خاصة وصلت إليها وأثبتت لها إثباتا قاطعا أن المندوب السامى قد نقل بالفعل إلى أنقرة . وكذلك لم يرد الله لهذه البيئات أن تجنى ثمار هذا الجهد العنيف الذى بذل فى لندرة لكسب رضا الديلى تلغراف بعد جورها القديم ، فقد ثابت الديلى تلغراف إلى الرضا بعد الغضب ، وعادت الديلى تلغراف إلى الإنصاف بعد الجور ، وعطفت الديلى تلغراف على الوزراء وأنصار الوزراء وعلى الحزبين المؤتلفين ومن يدور حول الحزبين المؤتلفين . وأكدت الديلى تلغراف أن المندوب السامى عائد إلى مصر ومستأنف عمله فيها . وأن الوزارة قد تحرم رئيسها المريض ولكنها ستبقى كما هى إجمالا ، وسيضاف إليها رجلان أو ثلاثة تمضى فى تصريف الأمور على هذا المنهاج البديع الخصب المنتج الذى ثبت الأمن وأقر النظام ،

---

(١) ١٤ - ٨ - ١٩٣٣

والذى استنقذ مصر من الفقر والبؤس ، ووفر عليها أعظم حظ ممكن من العزة والمجد ، ومن الثراء والسعادة والنعيم . وكان رأى الديلى تلغراف مخالفا لهذا كله منذ أسبوعين وكان رئيس الوزراء وزملاؤه يرونها جائرة ظالمة فيطلب بعضهم إليها النصفة والعطف ، ويعلن بعضهم عنها أنها لا تستحق عناية ولا التفاتا .

فلما أجابت الديلى تلغراف إلى ما طلب إليها من عطف وإنصاف فرحت صحف الوزارة ، وظهرت إحداها فى صباح الأحد سعيدة مبتهجة ، قد زينت صدرها بحليتين كريمتين هما صورة المندوب السامى المقيم فى منصبه ، لأن الله قد قدر له الشفاء التام ، وصورة رئيس الوزراء الذى سيعتزل منصبه لأن صحته تحتاج إلى الراحة وفراغ البال .

وبينما كانت الصحف الوزارية سعيدة بعودة الديلى تلغراف إلى الوصل بعد الصد ، وإلى القرب بعد الهجر ، وإلى الصفو بعد الجفاء كان الراسخون فى العلم من الوزاريين يذوقون حلاوة هذا الخيال مشوبة بمرارة اليأس الذى لا حظ له من عذوبة . وكانوا يقرءون مع هذا الفصل الحلو أنباء بأن المندوب السامى سيسافر ولكن لا إلى مصر ، وسيعبر البحر ولكن لا إلى وادى النيل ، وسيستقر فى الشرق ولكن لا فى القاهرة ، بل فى أنقرة ، لأن جو مصر قد يكون جميلا معتدلا ، وقد يكون صفوا سمحا ، وقد يكون ملائما للنقاهة فى الخريف والشتاء بعد المرض الطويل فى الربيع والصيف لولا أن فى جو مصر سحابة عظيمة مقيمة ، تزول السحب كلها ولا تزول ، وتحول

الأشياء كلها ولا تحول . وهذه السحابة العظيمة المقيمة يسميها الناس الوفد ، ويحاول الانجليز وغير الإنجليز أن يردوها عن هذا الجو الصفو ، ويصدوها عن هذا الإقليم المعتدل ليخلص لهم صفو ذلك واعتدال هذا ، ولكنهم لا يجدون إلى ردها ولا إلى صدها سبيلا ، فهى عظيمة دائما ، مقيمة دائما ، تظل المصريين بالصبر والثبات ، وتحمى المصريين من اليأس والقنوط . وهذه السحابة يستطيع المندوب السامى أن يحتمل ظلها المحرق عاما وأعواما ، ولكنه لا يستطيع أن يحتمله إلا بمقدار ، ولا أن يثبت له إلا بمقدار . وقد رأى الانجليز أن مندوبهم السامى قد احتمل ظل هذه السحابة العظيمة القيمة حتى احترق به أو كاد فأنقذوه ونقلوه إلى أنقرة حيث لا وفد ولا شى يشبه الوفد ، وحيث لا يحتاج إلا إلى أن يسير سيرة غيره من الوزراء والسفراء فى هدوء شامل ، واستقرار كامل ، وتصريف للعلاقات السياسية المألوفة بين الدول التى تستمتع بالاستقلال الصحيح .

والإنجليز يحبون العدل للإنجليز ، ويكرهون الجور عليهم والإلحاح عليهم بالظلم ، فهم قد أشفقوا على السير برسى لورين فنقلوه ، كما أشفقوا على اللورد لويد فعزلوه . وهم يريدون أن يرسلوا إلى مصر مندوبا ساميا جديدا يستقبل من أمر العلاقات الانجليزية المصرية ما استقبل أسلافه ، ويجرب فيها ما منحه الله من الذكاء والفطنة ، ومين الدهاء والحذق ، ومن المرونة واللباقة لعله أن يبلى فيحسن البلاء مع هذه السحابة العظيمة المقيمة التى تظل المصريين بالصبر وتحمى

المصريين من اليأس وتأبى أن تدع مكانها من جو مصر إلا أن تتم لها الحرية الصادقة والاستقلال الصحيح والسيادة التى لا تقبل شكا ولا جدالا ، ولا تتعرض لعبث ولا لعب . وقد يكون المندوب السامى الجديد موفقا كما وفق جورج لويد فيعزل وقد يكون موفقا كما وفق برسى لورين فينقل . وقد يكون الله قدر له توفيقا من طراز جديد ، لأنه قدر له خطة جديدة غير خطة صاحبيه . فقد أراد أحدهما أن يأخذ مصر بالبطش فانتهى إلى العزل وأراد الآخر أن يأخذ مصر بالدهاء فأنتهى إلى النقل . فلعل المندوب الجديد أن يلهمه الله أخذ مصر بالصراحة والصدق ومواجهة الحقائق الواقعة مخلصا لها ولأمته ، ناصحا لها ولأمته ، لا متجبرا فقد مضى زمن التجبر ، ولا ملتويا فقد مضى زمن الالتواء ، وأصبحت الأمم لا تساس كما يساس الأطفال ، ولا تؤخذ كما يؤخذ الأغرار والضعفاء . والأيام وحدها هى التى ستكشف عما قدر الله للمندوب الجديد من توفيق أو إخفاق .

مصر تعلم حق العلم أن الله قد كتب لها الفوز ، لأن الله قد كتب الفوز للحق دائما ، وقدر الانتصار للعدل دائما . وأى حق يشبه حق مصر فى أن تعيش حرة آمنة لا تعتدى على أحد ، ولا يعتدى عليها أحد ؟ ! وأى عدل يشبه حرص مصر على أن تكون أمورها إليها هى ، لا إلى غيرها من الأفراد ، ولا من الشعوب ؟ فسينظر المصريون إذن إلى انتقال المندوب السامى القديم باسمين وسينضرون إلى مقدم خلفه باسمين كما تعودوا أن ينظروا إلى الأحداث كلها باسمين ، لا يعرفون هذا الفرح الذى ينسى الناس أحلامهم ، ولا يعرفون هذا

الحزن الذى يصرف الناس عن الجهاد ، وإنما يعرفون الثقة بالحق والثبات على المطالبة به والسعى إليه فى حزم وعزم وفى عزة وإباء

ولكن أمر هذا الحادث الفجائى لا يخلو من شىء طريف . فلم نكن نقدر ونحن نكتب ما كتبناه أمس أن نبوءتنا ستتحقق بهذه السرعة ، وأن الذين ساءتهم أنباء الديلى تلغراف سيسرون عن قريب بما يسوء الذين استكتبوا الديلى تلغراف ، وكنا نظن أن خطط الصراع والنزاع وأساليب النضال والنزال تقضى شيئا من التمهل وأن الثأر لن يظفر به طلابه إلا بعد أسبوع أو ما يزيد على الأسبوع ، ولكن القوم كانوا فيما يظهر قد تأهبوا فأحسنوا التأهب والاستعداد ، فلم يكد ينتصر الموحون إلى الديلى تلغراف ويظفرون برضاها حتى انتصر خصومهم وحققت لهم الظروف ما يريدون .

وفى هذا الأمر عبرة خليقة بالتفكير وهى أن كل شىء ممكن حتى أن تقول الديلى تلغراف وتؤكد وتصطنع الحزم والجزم فيما تقول وتؤكد ، ويشيع الناس أنها لم تقل ولم تؤكد إلا عن وحى من المصادر العليمة . ثم يظهر فى اليوم نفسه أنها قد قالت وأكدت وحزمت وجزمت ولكن الظروف والحقائق الواقعة قالت شيئا آخر .

فما أجدر المصريين أن يعتبروا وما أجدر المصريين ألا يغلو فى تصديق الصحف والإيمان لها حتى ولو كانت الديلى تلغراف وأشباه الديلى تلغراف .